الإعـجاز البياني
في القرآن

سورة التين

محمد مبارك المزيودي

سورة التين

مكية ، وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾

مقاطع السورة

ارتبطت آيات هذه السورة ارتباطاً لغوياً وثيقاً حتى لكأنها جملة واحدة ، وذلك عبر الروابط التي تربط بين الجملة والأخرى ، ومع ذلك فبالإمكان تقسيم دلالاتها إلى ثلاثة مقاطع :

1ـ **القسم:** ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾

التين: ١ – ٣

2ـ **جواب القسم** : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ التين: ٤ – ٦

3 ـ **الغاية من جملة القسم**: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾ التين: ٧ – ٨

التفسير والبيان

1 ـ القسم :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ ﴾ التين: ١ – ٣

يقسم الله عز وجل في هذا القسم بأربع ذوات : التين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين ، وكنت قد انتهجت فيما سبق من تفسير جزء " عمّ " التوجه إلى أن الذوات إذا تعددت في القسم كان لِزاماً أن يكون هناك رابط معنوي يربط فيما بينها ، وعندما نظرت في قسمه سبحانه ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ووجه اتصاله بالقسمين الآخرين أعْضَلَ بي الأمر ، فاضطررت إلى النظر إليه من خلال ما اقترن ، وهو : طور سينين والبلد الأمين ، فوجدت في هذين القرينين محورين اثنين : **القدسية والأمان** ، ومن خلالهما سنقف إن شاء الله على الرابط الذي يربط بين تلك الذوات الأربعة التي أقسم بها العليم الحكيم :

أولاً : القدسية

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ،قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٢ ﴾ مريم: ٥١ – ٥٢ . فأصبح ذلك الطور مقدساً بتجلي الخطاب الإلهي في جنباته .

﴿ الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ مكة المكرمة ، شرّفها الله ، وهي بلد مقدس ، ومبعث قدسيته هو

بيت الله الحرام الذي قام من حوله ذلك البلد .

ثانياً : الأمان

﴿ ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾ بدأت بالبلد الأمين لقرب دلالة الأمان فيه ، وهو ماصرحت الآية بذكره " الأمين " قال تعالى :﴿ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا ﴾ البقرة: ١٢٥

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ الأمان يأتي تبعاً للقدسية ، وقد عرفنا وجه القدسية في الطور ، فما هو مستند دلالة الأمان في الطور ؟ ؟

بعد أن يقتل عيسى عليه السلام الدجال في باب لُدّ يُوْحي إليه ربه : ﴿ إني قد أخرجت عباداً لي لا يَدَانِ لأحد بقتالهم ، فحَرّزْ عبادي إلى الطور ... ﴾ رواه مسلم . ويقصد بأولئك العباد الذين أخرجهم يأجوج ومأجوج ، ومن صفاتهم أنهم لا يدان لأحد بقتالهم ، أي لا يقدر أحد عليهم ، فأمره الله تعالى بالتوجه هو ومن معه من المؤمنين إلى مكان يكونون فيه آمنين من هجمة يأجوج ومأجوج ، وهو قوله ﴿ فحرز عبادي إلى الطور ﴾ فيمضون إلى حيث أمرهم ربهم ، فيتبعهم يأجوج ومأجوج ، ولكن الله تعالى يمنعهم من اقتحام الطور ، وبذلك يكون المؤمنون آمنين من بطشهم ، فيكتفي يأجوج ومأجوج بحصارهم ، ويشتد الحصار على المؤمنين حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار ، كما قال رسول الله ﷺ ، فيتوجه عيسى عليه السلام ومن معه إلى الله بالدعاء ، فيُهْلك الله يأجوج ومأجوج في وقت واحد ، فلا يبقى ﴿ في الأرض موضع شِبْر واحد إلا ملأه زَهَمُهم ونَتَنُهم ﴾ .

فطور سينين مكان مقدس .
وبهذه القدسية كان أمانا لرسوله وللمؤمنين .

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴾ فما هي حدود القدسية والأمان في التين والزيتون ؟ والتي يفرضها السياق العام الذي ينتظم الذوات الأربع التي أقسم بها الله تعالى ؟؟

أولاً : الزيتون

استوجب البيان الابتداء بالزيتون لحضور أدلته في القرآن وفي السنة وفي علم الإنسان ، أما قدسيته فدليلها قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا

مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ ﴾ النور: ٣٥ . إذا تجلى الله على ذات أصبحت هذه الذات ذاتاً مقدسة ، منهما بصبغة القدسية ، وها هو جل شأنه يُجَلّي للناس مَثَلَ نوره بالإنارة المنبعثة من اشتعال زيت الزيتون في المصباح ، فحاز الزيتون بهذا التمثيل شرفاً تفرّد به من بين سائر الشجر . وقد وُصِف الزيتون في الآية بما يُوثق هذه القدسية :

﴿ شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ ﴾ والبركة لا تكون إلا عطاء من الله تعالى ، وهي في اللغة تعني الزيادة والنماء ، فكان حضور صفة البركة في شجرة الزيتون شاهداً على تجلي عطاء الله ، فاستحقت بهذا التجلي أن تكون مقدسة .

﴿ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ ﴾ لاحظ العلماء وجود ترددات كهربائية يطلقها جسم الإنسان ، وكذلك هو الشأن مع كل ما يحيط بالإنسان ، فكل شيء في هذا الكون يهتز بصورة مذهلة ، ومبعث هذا الاهتزاز هو الذرات ، إذ أن كل شيء فينا ومن حولنا مصنوع من الذرات ، وهذه الذرات دائمة الاهتزاز ، وهذا الاهتزاز ينشأ عنه مجال كهربائي ومغناطيسي .

ووجد الدكتور رويال رايف أن الأغذية تتمتع بترددات كهرطيسية يمكن قياسها ، فوجد أن الزيت يمتاز بأعلى ما في هذه الترددات . فالتردد الذي يبثه جسد الإنسان في حدود " 60 " ذبذبة في الثانية ، أما زيت الزيتون فتبلغ الترددات فيه " 320 " في الثانية ، وهذه الترددات تشبه ترددات الضوء الذي نراه ، إلا أن أعيننا لا تستطيع رؤية هذه الترددات ؛ لأن الله تعالى حجبها عنا ، فنحن نستطيع فقط رؤية مجال محدد من الترددات الضوئية ، أما الترددات العالية والمنخفضة فلا نراها ، إلا أننا نستطيع قياسها . وقد تبين للعلماء أن كمية الطاقة في زيت الزيتون كبيرة جداً ، وأن هذه الطاقة هي السبب في أن زيت الزيتون يستطيع شفاء أكثر من مائة مرض ، منها السرطان .

فالزيت يبث إضاءة ، ولكنها إضاءة غير مرئية ، ولذلك فإن النور الذي يطلقه الزيت بعد احتراقه يشكل نوراً مُضاعفاً ، ولذلك قال تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ ﴾ وهذه النورانية

المضاعفة إنما هي من فيض نور الله ، ولذلك استحق الزيتون أن يكون مقدساً ، وهي الصفة التي تُعَدّ أصلاً من أصول البركة .

أما **الأمان** فقد ذكرت فيه قبل قليل أنه صفة ملازمة للقدسية ، ومظهره في الزيتون ما ذكرته قبل قليل من أن زيت الزيتون فيه شفاء من أكثر من مائة مرض ، وهو ما ألمح إليه رسول الله ﷺ إذ قال في الزيت : ﴿ كلوا الزيت ، وادّهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة ﴾ رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي .

ثانياً : التين

إن إدراج التين في مجموعة ينتظمها إطار واحد ، حده القدسية والأمان ، يُوْجب أن يكون التين أيضاً مشتملاً على القدسية والأمان ، ومن وثائق هذا الوجوب ما يلي :

- **الجمع بينه وبين الزيتون في آية واحدة** يوجب اجتماعهما في الشرف والمقام . فإذا استحضرنا ما ذكرناه من شأن الزيتون علمنا أن التين لا يقل عنه قدسية وأماناً ، بل إنه يتقدم على الزيتون في ذلك لتقدم ذكره على ذِكر الزيتون .
- ومن شواهد تقدم التين على الزيتون في القدسية والأمان أنهما لما اجتمعا في سورة واحدة **اختار الله تعالى أن يسمي السورة باسم التين لا باسم الزيتون .**
- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : أُهْدِي إلى النبي ﷺ طبق من تين ، فقال : ﴿ كلوا ﴾ وأكل منه وقال : ﴿ لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة قلت هذه ؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوا منها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس ﴾ .

علّق ابن القيم على هذا الحديث بقوله : وفي ثبوت هذا نظر . بمعنى أنه حديث فيه ضعف . ومن المعلوم أن الحكم على الحديث بالصحة أو بالضعف يُنظَر فيه إلى السند ، وهم رواة الحديث ، فإذا كان في أحد الرواة ضعف حُكِم على الحديث بالضعف ، إلا أن هذا الحكم قد لايُبْطِل الحديث ؛ لأنه قد يكون من قول رسول الله ﷺ ولكنه أدركه الضعف من جهة أحد الرواة .

فالتين فاكهة لا عجم فيها ، وهذه الصفة صفة لازمة لفاكهة الجنة ، فكانت هذه المشابهة سبيلاً إلى الظن بأن شجرة التين من شجر الجنة أنزلها الله إلى الأرض ، ومن هذا

الوجه كانت لها هذه القدسية . ولكن رسول الله ﷺ لم يقطع بذلك ، لأنه لا يقطع إلا بما يُوْحي إليه ربه ، ومع ذلك فإن ظنه ﷺ فيه كفاية ؛ لأنه ظن قلب موصول بالله ، ومن كان قلبه كذلك كان ظنه يقيناً .

وأختم كلامي بدعوة أهل العلم إلى النظر في خصائص التين ، لعلهم يقفون على الحقائق التي جعلته مقدماً على الزيتون ، بل وجعلته مستحقاً لأن تُسَمّى السورة باسمه .

مستوى آخر

ذكر أهل التفسير أن الله عز وجل أقسم بثلاث محالّ ، بث في كل واحد منها نبياً رسولاً من أولي العزم ، أصحاب الشرائع الكبار : فالأول محله التين والزيتون ، وأشار بهما إلى بيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى عليه السلام ، والثاني طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام ، والثالث مكة المكرمة ، وهو البلد الأمين الذي أُرْسِل فيه محمد ﷺ . قال ابن كثير :

وفي آخر التوراة ذُكِرت هذه الأماكن الثلاثة كما يلي : **جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران .**

ساعير : جبل ببيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى عليه السلام .

فاران : يعني جبال مكة .

وعلى ذلك فإن تأويل ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ ببيت المقدس الذي بُعِث فيه عيسى عليه السلام تأويل مردود ، وبيان ذلك فيما يلي :

- تأويل المحاور الثلاثة الواردة في جملة القسم بالرسالات الثلاث يجعل رسالة عيسى عليه السلام مقدمة على رسالتي موسى ومحمد عليهما السلام ، وهو ترتيب مخالف للترتيب الزمني ؛ لأن موسى سابق لعيسى عليه السلام . في حين أننا نجد في النص الذي أورده ابن كثير مراعاة للترتيب الزمني .
- وقد اجتهد أهل التفسير في بيان وجه تقديم أمر عيسى عليه السلام فقالوا : أقسم الله بالأشرف ثم بالأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .وهو تعليل لا يتوافق مع فصاحة البيان ،

فكيف إذا كان البيان قرآناً لا يرقى إلى فصاحته أي بيان !!! فالفصاحة تستلزم تقديم الأكثر شرفاً على ما هو دونه في الشرف ، أي الابتداء بالبلد الأمين والتثنية بالطور والاختتام بالتين والزيتون إذا كان المراد منه رسالة عيسى عليه السلام ، أي أن هذا التعليل لا يقدم لنا تفسيراً ، بل ويستلزم أن لا يكون المراد بالتين والزيتون رسالة عيسى عليه السلام .

- ولو كان المراد بالتين والزيتون رسالة عيسى عليه السلام لكان الأجدر ذكر المكان الذي تجلى فيه الخطاب الإلهي ، لأنه بذلك يكون قطعيّ الدلالة ، كما هو الشأن في ذكر الطور والبلد الأمين ، وكما هو الشأن في خبر التوراة الذي ذكره ابن كثير رحمه الله ، حيث ذكر جبل { ساعير } بعد ذكر جبل الطور ، وقبل ذكر جبال فاران . أما التين والزيتون فليسا محصورين في بيت المقدس ، فهما شجرتان تنبتان في غير مكان من الأرض .

أي أن الله تعالى لم يذكر أمر عيسى عليه السلام ، ولو أراد ذكره لذكره تحديداً مثلما فعل في أمري موسى ومحمد ﷺ ، وذلك أن ذكر أمر عيسى عليه السلام مشروط بذكر المكان ، لا بذكر التين والزيتون .

فإذا كان ذلك كذلك فأين هو أمر عيسى عليه السلام ؟؟
وماذا أراد الله تعالى بذكر التين والزيتون ؟ ؟

أولاً : رسالة عيسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٩ – ٣٠

أسندوا إلى القرآن أنه أُنْزل بعد الكتاب الذي أُنْزِل على موسى عليه السلام وواقع الأمر أن القرآن أُنْزِل بعد الرسالة التي أنزلها الله تعالى على عيسى عليه السلام . **فما الذي جعل الجن يتجاوزون عيسى عليه السلام إلى موسى عليه السلام ؟**

لم يكن أولئك النفر من الجن منكرين لأمر عيسى عليه السلام بدليل اعترافهما برسالتي موسى ومحمد ﷺ ، أي أن ذلك التجاوز الذي جرى على ألسنتهم وأقره الله في كتابه كان تجاوزاً تمّت فيه مراعاة مقتضى الحال ، وإقراراً بحقيقة تضافرت الشواهد على بيانها ، ألا وهي أن رسالة عيسى عليه السلام ليست مستقلة عن رسالة موسى عليه السلام ودليل ذلك :

- **كل منهما كان رسولا إلى بني إسرائيل** :

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الإسراء: ٢

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ الصف: ٦

- **والتوراة هي مدار شريعة عيسى** عليه السلام وذلك أن شريعته تعاملت مع التوراة على ثلاثة مستويات :

الأول : إقرار ما ورد في التوراة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ الصف: ٦

الثاني : نسخ بعض الأحكام الواردة في التوراة ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام في خطاب قومه : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ آل عمران: ٥٠

الثالث : إدراج ما لم يكن مُدْرجاً في التوراة ، وذلك أن التوراة في عهد موسى عليه السلام جاءت بالسيف والقتال ، فبعث الله عيسى عليه السلام بالمحبة والسلام .

فكانت رسالة عيسى عليه السلام من جهة رسالة تابعة لرسالة موسى عليه السلام ، ولذلك تركت الجن ذكرها ، وترك الله تعالى ذكرها إذ اقتصر على ذكر " طور سينين " ومن جهة أخرى هي رسالة لها كيانها الخاص استحقت اسماً مخصوصاً " الإنجيل "وذلك بالنظر إلى السمات العامة التي تلبس بها مبعث عيسى عليه السلام . أي أنه سبحانه طوى ذكر رسالة عيسى عليه السلام بذكر ما أشار به إلى رسالة موسى عليه السلام ، وهو قوله : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾

ثانياً : المراد من التين والزيتون

فإن لم يكن المراد بالتين والزيتون الإشارة إلى أمر عيسى عليه السلام **فما هو سر ذكر التين والزيتون في معرض الإشارة إلى رسالات السماء ؟؟**

الإجابة على ذلك هي مدار تفسير قوله تعالى :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

2 ـ جواب القسم :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ التين: ٤ – ٦

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين: ٤

هذه الآية هي جواب ما أقسم الله به في الآيات الثلاث السابقة ، وحيث إنه قد تبين لنا فيما سبق من تفسير جزء " عمّ " حتمية وجود ارتباط بين ما يقسم به جل شأنه وبين جواب القسم ، فإن خلق الإنسان في أحسن تقويم له وثيق الصلة بدلالات الآيات الثلاث الأولى ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

لفظ الإنسان ، حيثما ورد في كتاب الله ، يتوجه إلى الناس جميعاً ، والمعنى أن كل إنسان مخلوق في أحسن تقويم ، وعامة المفسرين توجهوا إلى أن المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم هو اعتدال واستقامة جسده . وهو تفسير فيه قصور كبير ، وذلك أن خلق الإنسان لا يقف عند حد الجسد ، بل هو أوسع من ذلك :

فما هي حدود هذا الخَلْقِ الموصوف بهذه الصفة ؟؟

- يُقال :قوّمْت الرمْحَ تقويماً إذا جعلته في حالته المُثلى من الاستقامة ، أي أن خَلْق الإنسان في أحسن تقويم يعني خَلْقَه على خير نظام،وهذا الخَلْقُ لا يقف عند صورة الجسد ، بل يمضي أيضاً إلى فعاليات الإنسان الوجودية ، ودليل ذلك في كتاب الله تعالى ، ففي شأن

خلق الجسد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾ الانفطار: ٦ – ٨ . وبعد أن فصّل مراحل خَلْق الإنسان في بطن أمه عقّب على ذلك بقوله :﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤.

ولكن الظاهرة الوجودية للإنسان ليست ظاهرة هيكلية فقط ، مثلما هي ظاهرة الجمادات ، بل هي أيضاً ظاهرة « عملية » أي تملك فاعلية انتشار العمل في الأرض ، وقد قدّر الله للإنسان أن يكون مؤهّلاً للاختيار بين عملين متضادين ؛ الإصلاح أو الإفساد ، ولذلك كان العمل داخلاً في معنى خَلْق الإنسان ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ الصافات: ٩٥ – ٩٦ . وفي تفسير ذلك يقول النسفي: والله خالقكم وخالق أعمالكم ، ولذلك يُقال للإنسان الضال : استقم ؛ أي ليكن عملك عملاً قويماً . وعمل الإنسان لا يكون قويماً إلا إذا مضى على مراد الله تعالى ، وهو شرعه الحكيم ، الذي قال فيه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ الإسراء: ٩

فخَلْق الإنسان في أحسن تقويم يتوجه إلى شقين ؛ الجسد والعمل ، وهو ما تمّ الالتفات إليه فيما أقسم به جل شأنه ، فأقسم بالتين والزيتون التفاتاً إلى خَلْق الجسد ، وأقسم بالطور والبلد الأمين التفاتاً إلى خَلْق العمل ، وسأبدأ في بيان ذلك بخَلْق العمل لقرب مأخذه :

أولاً : شِقّ العمل

ذكرت أن عمل الإنسان داخل في معنى خَلْق الإنسان في أحسن تقويم ، وهو العمل الذي خُلِق الإنسان لأدائه ، قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦

وقد أودع جل شأنه هذه الفطرة في تكوين الإنسان ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾الروم: ٣٠ . وقال رسول الله ﷺ : ﴿ ما من مولود إلا ويُوْلد على الفطرة ، فأبواه يُهَوّدانه ويُنَصّرانه ويُمَجّسانه ...﴾ رواه مسلم والبخاري .

فهل ثبت الإنسان على هذه الفطرة ؟؟

كلا ، إذ كان من ديدن الإنسان أن ينحرف عن هذه الفطرة ، ولو لم يتداركه الله برحمته للبث للبث على هذا الانحراف ، ولكن سبحانه تعاهده بالرسالات السماوية ليخرجه من هذا الانحراف إلى الصراط المستقيم " أحسن تقويم " وهو ما أشار إليه جل شأنه بذكر مكان تنزل التوراة ومكان تنزل القرآن ، إذ أن كلاً منهما رسالة سماوية ضمَّنها جل شأنه الشرائع التي تجعل عمل الإنسان في " أحسن تقويم " .

وقد اقتصر جل شأنه على ذكر التوراة والقرآن لسببين :

الأول : **أنهما يمثلان مبدأ الهداية وختامها** . ففي شأن التوراة قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ الأعلى: ١٨ - ١٩ . وفي شأن القرآن أشار جل شأنه إلى أنه ختام الرسالات بقوله في عبده ورسوله : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠ . فصحف موسى عليه السلام هي الصحف الأولى ، وصحف محمد ﷺ آخر تلك الصحف ، وطوى الله بذكرهما كل ما بينهما من صحف ، ليكون البيان بذلك بياناً شمولياً يتجانس مع دلالة الشمولية في لفظ الإنسان في قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

ثانيا : **أنهما الرسالتان الشاملتان** اللتان استوفى الله عز وجل فيهما كل ما من شأنه أن يجعل الإنسان في أحسن تقويم ، ففي صفة التوراة قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ الأعراف: ١٤٥

وفي شأن القرآن قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩ . أي أن الرسالتين كانتا رسالتين شاملتين ، فتجانس أمرهما مع إطار الشمولية الذي دل عليه لفظ " الإنسان " .

وفي بيان دلالة " أحسن تقويم " في شق العمل هناك مستوى آخر هو أكثر دقة مما ذكرته ، بل هو الأصل لما سبق إيراده ، إلا أنني سأؤجله إلى موضع تفسير : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ

سَٰفِلِينَ ﴾ لأنه ألصق بذاك الموضع .

ثانياً : شق الجسد

بينت فيما سبق أن قسمه سبحانه بالطور والبلد الأمين جاء التفاتاً إلى خلق الإنسان في أحسن تقويم من جهة العمل ، وذكرت أن خلق الإنسان في أحسن تقويم تمضي دلالته إلى مستويين : الجسد والعمل ، ومن أجل ذلك جاء القسم بالتين والزيتون ، موافقة لخلق الإنسان في أحسن تقويم من جهة الجسد ، فمن شأن التين والزيتون أن يجعلا الجسد في أحسن تقويم ، وبيان ذلك فيما يلي :

- **ما حد ذلك التقويم ؟**

إن الإنسان من لدن آدم عليه السلام وإلى آخر مولود يُوْلَد على هذه الأرض محكوم بتقويم واحد ، سواء أكان جنيناً في بطن أمه أم كان معدوداً من الأحياء في الأرض ، أي أن التين والزيتون لا يغيران من حدود التقويم الذي قدّره الله تعالى في خَلْق الإنسان ، ولذلك وجب أن تكون مساهمة التين والزيتون في خلق الإنسان في أحسن تقويم محصورة في مسار محدد ، وهو أن يكون الجسد في أفضل حالاته " أحسن تقويم "

- **حقيقة ذلك التقويم**

كل تأويل جديد عُرْضة للرفض والرد إن لم تكن له حيثيات تسوّغه ، وهو ما يُوْجِب عليَّ في هذا البيان عرض مسوّغات ارتباط التين والزيتون بخلْق الجسد في أحسن تقويم :

أولاً : أكرموا عمتكم

هذا العنوان رأس حديث لرسول الله ﷺ : ﴿ أكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ ، فَإِنَّها خُلِقتْ منْ ذاتِ الطِّيْنةِ التي خُلِقَ منها آدمُ عليه السلام ﴾ أي أن النخلة اشتركت مع الإنسان في طينة واحدة ، فكان ذلك أساساً لوجود علاقة خاصة بين تكوين الإنسان وبين النخلة ، ومن شواهد هذه العلاقة :

- قال تعالى : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ﴾مريم: ٢٥ – ٢٦ فقوله " وقَرِّيْ عَيْناً " يفيد معنى السكينة والطمأنينة ، أي

أن الأكل من ثمر النخلة يبث السكينة والطمأنينة في نفس الإنسان ، وهي الحقيقة العلمية التي وقف عليها العلماء المعاصرون إذ قالوا : إن أكل تمرات عند الصباح يكفل للإنسان السكينة والطمأنينة سائر اليوم . فإذا أشحنا بالنظر عن هذه الحقيقة قليلاً إلى الإنسان حال ميلاده وجدنا الله تعالى قد جعل غذاءه في ثدي أمه ، وفي هذا لاحظ أهل العلم أن الرضاعة من ثدي الأم تكفل للرضيع السكينة والطمأنينة في صغره وفي كبره .

والغذاء الذي يتزوده الرضيع من ثدي أمه غذاء كامل ، وليس هناك من غذاء يسد مسده ، وكذلك هو الشأن مع التمر الذي يتزوده الإنسان من النخلة ، يُعَدّ غذاء كاملاً ، ولا شيء يسد مسده ، وقد قال ﷺ : ﴿ بيت لا تمر فيه جياع أهله ﴾ . ومن مظاهر علاقة النخلة بتكوين الإنسان قوله ﷺ : ﴿ من تصبح بسبع تمرات لم يضره ذلك اليوم سُمٌّ ولا سحر ﴾ رواه البخاري ومسلم

ثانياً : التين والزيتون

في العرض السابق تبين لنا كيف أن التمر مُدْرَج في معنى خَلْق الإنسان في أحسن تقويم ، وذلك من جهة ما يحققه التمر من صلاح في النفس والجسد ، ومن هذا الوجه كان القسم بالتين والزيتون . وقد مر معنا فيما سبق قول أهل العلم المعاصرون أن زيت الزيتون شفاء من أكثر من مائة داء ، وكأن رسول الله ﷺ إذ أمر بالأكل منه والادّهان به إنما كان ذلك التفاتاً منه إلى أنه أمان من كل تلك الأدواء ، وفي هذا الأمان قَدْر من معنى خَلْق الإنسان ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ وهو ما من شأنه أن يقطع بأن التين له نفس الخاصية ، وقرينة ذلك أنهما اشتركا في آية واحدة ، وفي مساق واحد . بل إن التين يُعدّ متقدماً على الزيتون في هذه الفعالية ، وذلك بدليلين ؛ الأول : تقديمه على الزيتون ، والثاني : تسمية السورة باسم " التين "

وكنت قد وقفت عند هذا الحد في بيان قيمة التين في دلالة خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذلك أنني لم أجد في كتب الطب القديمة والحديثة ما يتوجه إلى هذه الدلالة ،

فاقتصرت على ما أشار إليه نمط البيان في السورة ، وعندما بلغت حد الفراغ من تفسير السورة بلغني أن اليابانيين توصلوا إلى اكتشاف جديد في شأن التين ، فلما اطلعت عليه وجدت أنه يصب صباً مباشراً فيما ذكرته من مقام التين ، وفيما يلي مضمون هذا الاكتشاف :

يفرز مخ الإنسان والحيوان مادة تُسمّى " الميثالوثيونيدز " ، ولكن بكميات قليلة ، وهي مادة بروتينية بها كبريت ، ولهذا يمكنها الاتحاد بسهولة مع الزنك والحديد والفسفور . وتُعتبر هذه المادة هامة جداً لحيوية جسم الإنسان " خفض الكوليسترول ـ التمثيل الغذائي ـ تقوية القلب ـ ضبط التنفس " ويبدأ إفراز هذه المادة في سن الخامسة عشرة ، ويستمر حتى الخامسة والثلاثين ، وبعد ذلك يقل إفرازها شيئاً فشيئاً إلى الستين من عمر الإنسان .

ولذلك اتجه العلماء للبحث عنها في النباتات ، فقام فريق من علماء اليابان بالبحث عن هذه المادة السحرية " الميثالوثيونيدز » والتي لها أبلغ الأثر في إزالة أعراض الشيخوخة ، فلم يعثروا على هذه المادة إلا في نوعين من النباتات : التين والزيتون .

وقام هذا الفريق باستخلاص تلك المادة من كل شجرة على حدة ، فوجدوا أن استخدام كل مُسْتخلص على حدة لا يعطي الفائدة المرجوة لصحة الإنسان ، وعندما قاموا بخلط المادة المُسْتخلصة من التين مع مثيلتها من الزيتون وجدوا لذلك أثراً ، فتوجهوا للبحث عن أفضل النسب المؤثرة في صحة الإنسان ، فوجدوها 1 : 7 " من التين وحدة واحدة ، ومن الزيتون سبع وحدات " ولم يعلموا أن هذه النسبة هي نسبة ذكر التين إلى نسبة ذكر الزيتون في كتاب الله ، فالتين ذكِر مرة واحدة ، والزيتون سبع مرات .

ففي التين والزيتون أمان للإنسان من أن يبلغ الجسد ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ وهو ما يُوجب اشتراك التين والزيتون في دلالة القدسية مثلما اشتركا في معنى الأمان . إلا أنني استدرك على ما ورد في هذا النص أن التين يملك تلك الصلاحية حتى وإن كان منفرداً

عن الزيتون ، مثلما كان للزيتون تلك الفعالية العظيمة حتى وهو منفرد عن التين ، أي أن النسب المذكورة ليست شرطاً لازماً .

والرسالات السماوية أيضا أمان لعمل الإنسان من أن يبلغ ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ التين: ٥

● إذا توجهنا بالنظر إلى الملائكة سنجد أنهم خَلْق من خَلْق الله ، أيضاً خلقهم الله في أحسن تقويم ، إلا أنه سبحانه لم يُقدّر في خلقهم أن يردهم أسفل سافلين ، لا من حيث الجسد ولامن حيث العمل . فهم يعبدون الله لا يعصونه أبداً . أما الإنسان فقد فطره الله تعالى على الإسلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ الروم: ٣٠ . وقال رسول الله ﷺ : ﴿ **ما من مولود إلا ويُوْلَد على الفطرة ، فأبواه يُهوّدانه ويُنصّرانه ويُمَجّسانه ...** ﴾ رواه البخاري ومسلم .

ولو دام الإنسان على ما فطره الله عليه لدامت عليه صفة حسن التقويم ، ولكن الله لم يخلقه على ما خُلِقت عليه الملائكة ، وذلك أن الله تعالى أودع فيه نظام الفجور والتقوى وصلاحية الاختيار بينهما ، فكان هذا النظام باباً قد يُفْضي به إلى أسفل سافلين إن اختار الخروج عما فطره الله عليه .

● ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ وردت في تأويل ذلك أقوال عديدة :

○ ثم كان عاقبة أمره ، حين لم يشكر نعمة تلك الخِلْقة الحسنة القويمة ، أن رددناه أسفل من سفل خَلْقاً وتركيباً ، أي أقبح من قبح صورة ، وهم أصحاب النار .

○ أو أسفل من سفل من أهل الدركات من أهل النار .

○ أو رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل : فقُوّس ظهرُه بعد اعتداله ، وابيضّ شعرُه بعد سواده ، وضَعُف سمعه وبصره وتغيّر كل شيء منه ...

في جملة ما سبق إيراده توجه تفسير ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى النار ، وذلك في مقابلة دلالة ﴿ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ على العمل ، وفي دلالة ﴿ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ على صورة الجسد توجهوا بمعنى ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى ما يلحق الإنسان في أرذل العمر . وليس لي من ملْحظ في ذلك سوى أنه يجب قصر دلالة ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ على عمل الإنسان في دنياه ؛ لأن ما ذُكِر من دلالة ﴿ أحسن تقويم ، أسفل سافلين ﴾ مداره ما يكون عليه الإنسان في دنياه ، وليس في ذلك ما يتعارض مع اختيار النار ؛ لأن من بلغ أسفل سافلين في عمله كان من أهل النار .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴾ التين: ٦

- خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ،وقدَّر في خَلْقه العجز عن أن يحافظ على ذلك التقويم ، ولو أن تركه الله لما جبله عليه لكان قوله تعالى ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ قَدَرَاً لكل إنسان ، ولكن الله عزوجل رحيم بعباده ، فكان من رحمته بهم أن تعاهدهم بالرسالات السماوية التي تبين لهم منهج ﴿ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ ولذلك استثنى الله عز وجل ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من مآلات ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ .
- ذكر النسفي ، رحمه الله ، أن الاستثناء في الآية يأتي استثناء متصلاً إذا توجهنا بدلالة ﴿ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ إلى الجسد ، ووجه الاتصال أن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هم فريق من الذين شاخوا في الإسلام ، وذلك حال تأويل ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ ببلوغ الهرم والشيخوخة . ويأتي الاستثناء منفصلاً حال تأويل ﴿ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بالكفر والعصيان ؛

لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسوا فريقاً ممن كان عمله أسفل سافلين . وهو تأويل لنا عليه ملاحظات ، نمهد لها بالرسم التالي :

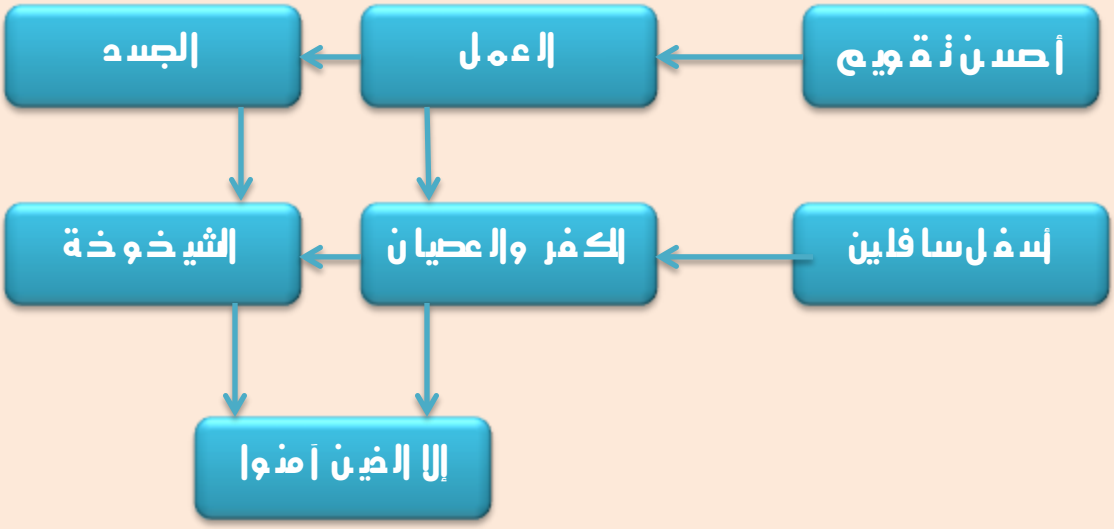

فالاستثناء في الحالتين " العمل والجسد " استثناء متصل ، وفيما يلي بيان لوجه الاستثناء في كلٍّ منهما :

حالة العمل : بقاء الإنسان في أحسن تقويم مرهون ببقائه على ما فطره الله عليه ، ولكنه ، بما هو عليه من قصور وجهل وبما جُبِل عليه من فجور وتقوى ، لا مناص له من أن يكون في أسفل سافلين ، فاستثنى جل شأنه من الصيرورة إلى هذا المآل " **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** " .

حالة الجسد : وضع جل شأنه لبناء الجسد نظاماً يسري على كل إنسان ، وهو قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ الروم: ٥٤ . فالضعف والشيبة قدَر لازم للإنسان ، فاستثنى جل شأنه الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ذلك المآل ، **فما هي الشواهد الدالة على هذا الوجه ؟؟**

● قال ﷺ : ﴿عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قُرْبة إلى الله عز وجل ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومَطْردة للداء ﴾ رواه الترمذي .

● وقال ﷺ : ﴿ أهل القرآن لا يخرفون ﴾

● وقال ﷺ : ﴿ صوموا تصحوا ﴾

فقيام الليل يطرد الداء عن الجسد،وبقراءة القرآن وحفظه يسلم العقل من داء الخَرَف ، وبالصيام يصح الجسد . وقد قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ الإسراء: ٨٢ . فالقرآن وقيام الليل والصيام والصلاة والصدقة وغيرها ، كل ذلك هو مضمون قوله﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾وهي في ذات الوقت تحفظ الجسد من أن يُرَدّ إلى أسفل سافلين .وبذلك تمضي دلالة الاستثناء المتصل على حالة الجسد ، فكل إنسان محكوم بالوقوع في دلالة ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ على شيخوخة الجسد وضعفه ، ويُسْتثْنى من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ملاحظة دقيقة :

مما سبق يتبين لنا أن الإيمان وعمل الصالحات يحفظ الجسد من التردي في أسفل سافلين ، وهنا لا بد من النظر إلى دلالة أسفل سافلين في إطار المستوى الذي يتناسب مع النظام العام الذي أمضى الله عليه خلق الجسد :

خَلْق الإنسان في أحسن تقويم ليس وقفاً على اعتدال صورة الجسد ونضارة الشباب ، بل هو معنى تمضي دلالته أيضاً إلى القدرات التي يشتمل عليها الجسد ، وإلى سلامة الجسد " النسبية " من العلل والأدواء . فالمؤمن تدركه آثار الكِبَر في جسده ، وفي وجهه ، وفي قواه،ولكن هذه القُوَى لا تتهاوى إلى أسفل سافلين ، ومن ذلك أن عقله لا يدركه الخَرَفُ ، بل يبقى وافراً ، وكذلك هو الشأن مع سائر قواه ، لا يبلغ بها النقصان حد العجز ، بل يبقى لديه قَدْر منها ، يُغْنيه عن الاحتياج إلى الآخرين ...

وحدة النظام :

تبين لنا مما سبق أن العبادات لا يقف أثرها عند حد العمل ، بل يمتد أثرها إلى الجسد ، وهو ما من شأنه أن يكون دليلاً على وحدة النظام ، ومظهر هذه الوحدة أن الله تعالى جمع التين والزيتون والطور والبلد الأمين في دائرة واحدة ، ألا وهي دائرة المُقْسم به ، ثم جعل الجواب عليها جميعاً جواباً واحداً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾.

وهذه الوحدة تستلزم اشتراك الأقسام الأربعة في حقيقة خَلْق الإنسان في أحسن تقويم ، وقد علمنا أن هذا الخلق تمضي دلالته على محورين : الجسد والعمل . وكنت قد بينت أن القسم بالطور والبلد الأمين تتوجه دلالته إلى رسالات السماء التي أُنْزِلت لحفظ عمل الإنسان وإبقائه في أحسن تقويم ، ثم بيّنت وجه الحفظ الذي تؤديه الرسالات السماوية في حفظ جسد الإنسان ، وذلك بذكر قيام الليل والصوم والقرآن ...

- وبذلك كان لِزاماً أن يتوجه القسم بالتين والزيتون أيضاً إلى شقي الجسد والعمل ،

وكنت قد بينت وجه تعلق التين والزيتون بدلالة ﴿ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ على سلامة الجسد ،

فما هو وجه تعلقهما بالعمل ؟؟

الأول : قال تعالى في شأن الزيتون ﴿ شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ النور: ٣٥ فقد وُصِفت هذه الشجرة بأنها مباركة ، وأن هذه المباركة كائنة فيما جعله الله للزيتون من فعالية عظيمة في الشفاء والوقاية من العلل ، واستناداً إلى ما ذكرته من شأن وحدة النظام فإن دور التين والزيتون في خلق الإنسان في أحسن تقويم لا يقف عند حد الجسد ، بل تنساق فعاليته أيضاً إلى العمل ، ووجه هذه الفعالية أن ما جعله الله للزيتون ، ومن قبله التين ، من بركة يستوجب كونهما شجرتين مقدستين ، وقد علمنا أن تعلق الجسد بقدس من أقداس الله من شأنه أن يُفْضي إلى تحول الإنسان إلى صالح الأعمال ، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما نراه من أمر الحج ، وذلك أن تعلق الجسد بقدس الحج المبرور يُفْضي به حتماً إلى الجنة ، ومن كانت الجنة له مآلاً كان لِزاماً أن يكون من الأتقياء ؛ لأن الجنة لا يدخلها إلا الأتقياء .

فهل يكون للطعام أثر في عمل الإنسان ؟؟

الثاني : قال ﷺ ﴿ كل لحم نبت من سُحْت فالنار أولى به ﴾

جسد الإنسان"لحمه" ينمو ويربو مما يأكله من طعام ، فإذا كان طعامه من" سُحْت " قال ﷺ " فالنار أولى به " وقد علمنا أن النار لا يدخلها الإنسان إلا بما قدمت يداه ، أي بما عمل ، وبذلك يكون السحت الذي دخل في تكوين الجسد سبباً يُفْضي بالجسد إلى التلبس بعمل أهل النار .

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا أُتِي بمولود مضغ له تمرة ثم حنّكه بها ، وهو فعل ليس لنا بأي حال من الأحوال أن نقول إنه لا معنى له ، بل كانت له غاية ، وهذه الغاية هي حصول البركة لدى هذا المولود بدخول قَدْر من تكوين هذه التمرة التي تلبست بقدسية رسول ﷺ في تكوين جسده . □

وقال تعالى :﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الأعراف: ٣١ وقد علمنا أن نفى محبة الله عن عبد من العباد يستلزم أن لا يكون من الأتقياء ، لأن الأتقياء قد ثبتت لهم محبة الله ، أي أنه سيكون ممن أسرفوا على أنفسهم في الآثام .

● ووحدة النظام هذه تستدعي أن يكون اشتراك ركن التين والزيتون مع ركن الطور والبلد الأمين في جملة القسم إشارة إلى تلازمهما ، بمعنى أن فعالية التين والزيتون في دلالة "أحسن تقويم" مشروطة بالإيمان ، خاصة ونحن نرى الجمع بينهما في استثناء واحد﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ **فما هو وجه هذا التلازم ؟**

قال تعالى :﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

فتقييد النهي بما لم يُذْكر اسم الله عليه إعلام بأن الله لم يجعل للإنسان خيراً في الأكل مما نهاه عنه ، وأن الخير الوفيرحاصل فقط في كل ما ذُكِر اسم الله عليه مما أحله الله .

ولاجدال في أن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هم فقط من يذكر اسم الله على طعامه ، وبذلك يجتمع ذكر الله " البسملة " مع التين والزيتون ليكونا بذلك أبلغ في تحقيق دلالة " أحسن تقويم " .

● ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وردت هذه الجملة تحديداً في سورة ''الانشقاق'' ولكن بغير فاء ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ . وقد علل النسفي ذلك بقوله : إنه جاء لغرض الجمع بين اللغتين ، بمعنى أن الأسلوب يأتي على هذين الوجهين . ومع الاحترام والتقدير لكل من تصدّر لتفسير القرآن ، فإنني أرى الأمر يتجاوز الحد اللغوي؛ لأن القرآن لا يذكر حرفاً ويدع آخر إلا وكان من وراء ذلك دلالة مقصودة ، وهو ما يستوجب النظر في علة ذكر الفاء في هذا الموضع وتركها هناك :

في سورة الانشقاق جاء الاستثناء من قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الانشقاق: ٢٤ فكان قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ استثناء من ذلك العذاب ، ثم أُتبع بقوله تعالى ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لبيان وجه هذا الاستثناء ، ولذلك لم يُفْصَل بينه وبين الاستثناء بالفاء . أما في آية '' التين '' فالاستثناء ليس استثناء من عذاب إنما هو استثناء من دلالة ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ وهي دلالة كنت قد ذكرت أن مدار جريانها هو الحياة الدنيا ، أي أن قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التين: ٦ . لاتمضي دلالته إلى المآل يوم القيامة ، ولذلك وجب فصل ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ التين: ٦ . عن الاستثناء بحرف الفاء ؛ إيذاناً بأنها ليست بياناً لوجه الاستثناء ، إنما هو مقام آخر يأتي بعد مقام الاستثناء من ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ في الحياة الدنيا ، وهو مقام الجنة .

● ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير ممنون : أي غير مقطوع ، والأجر هو نعيم الجنة ، ووجه عدم انقطاعه ماقضاه الله من خلود يوم القيامة ، وفي وصف الأجر بأنه غير ممنون تناسب مع أصل البيان ، وهو خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذلك أن الإنسان في الحياة الدنيا ينقطع شبابه مع بلوغ سن الشيخوخة ، أما الجنة فشبابه فيها غير ممنون ، بل هو شباب دائم ، وإن شئت قلت : '' أحسن تقويم '' دائم ، في الجسد وفي العمل .

3 ـ إغلبة من جملة القسم: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾ التين: ٧ – ٨

الخطاب في الآيتين ليس لمحمد ﷺ وذلك أنه لم يكن على تكذيب بالدين ، بل الخطاب للإنسان عموماً ، وقد جاء على سبيل الالتفات ، كما قال النسفي رحمه الله ، ووجه الالتفات في ذلك ، أن الله تعالى ذكر الإنسان في الآيات السابقة بضمير الغيبة ، ثم التفت في هاتين الآيتين من الغيبة إلى الخطاب .

﴿ بَعْدُ ﴾ ظرف تمّ بناؤه على الضم لقطعه عن الإضافة ، لعدم ذكر المضاف إليه ، أي : فما يكذبك أيها الإنسان بالدين بعد ما تم بيانه من نظام خلق الإنسان ؟

﴿ بِٱلدِّينِ ﴾ لو اقترنت هذه الكلمة بكلمة " يوم " لوقفت الدلالة عند حد يوم القيامة ، ولذلك ترك جل شأنه كلمة " يوم " لتمضي الدلالة إلى وجهين : الدين الذي أنزله الله على عبده ورسوله ، ويوم الدين الذي يُعْرَض فيه الناس على رب العالمين .

- والاستفهام في الآية استفهام تعجبي ، يحمل معنى التعجب من تكذيب الإنسان بالدين وهو يرى في واقعه ما يدل على صدق الإخبار عنه ، وهو ما يستدعي منا بيان تلك الدلائل وارتباطها بدلالتي " الدين " :

أولاً : دلالة الدين على الشريعة

إذا نظرنا إلى أحوال المخاطبين وقت نزول هذه السورة سنجد أنهم كانوا على علم بأمر الرسالات ،وذلك عبر اختلاطهم بأتباع هذه الرسالات ، اليهود والنصارى ، وهو ما تمت الإشارة إليه بذكر طور سينين والبلد الأمين . فإذا كانوا قد سلموا بأن من في السماء يرسل رسالات إلى الناس ، فما الذي يدعوهم إلى التكذيب بالدين الذي دعاهم إليه محمد ﷺ ؟

وإذا جئنا إلى منظومة " أحسن تقويم ، أسفل سافلين " كان في ذلك شاهد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد على صدق وصحة دعوة محمدﷺ ، وذلك لما كان

يشهده المشركون من صدق هذه المنظومة في يرونه من أحوال أجسادهم .

ثانياً : دلالة الدين على البعث

الدين يأتي بمعنى الجزاء ، يُقال : كما تدين تُدان ، أي كما تفعل تُجَازى ، والدين بهذا المعنى يتضمن معنى البعث ؛ لأنه لا دين إلا بحصول البعث ، وبقول آخر : الغاية من البعث هي الدين ، أي الجزاء ، وقد قدّم المولى عز وجل للإنسان دليلاً دامغاً على البعث بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾الحج: ٥ فذكر له تحولات خلقه من التراب وصولاً إلى أرذل العمر : **من تراب...من نطفة...من علقة...من مضغة.. طفلاً...لتبلغوا أشدكم...أرذل العمر** .وهذه التحولات هي مدلول قوله تعالى :﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ ﴾

ووجه التناسب بين هذه التحولات وبين فكرة البعث ، أن الإنسان قبل أن يُوْلد لم يكن له وجود ، ثم إذا أراد الله له الوجود ابتدأ خَلْقَه من تراب ، ثم تتابعت التحولات إلى أن يبلغ به الله دلالة أحسن تقويم ، ثم يتراجع ذلك التكوين إلى أن يبلغ أرذل العمر ، فإذا رأى الإنسان ذلك من نفسه عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن الذي خلقه من لا شيء قادر على أن يبعثه من بعد موته .

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ التين: ٨

● ختم الله عز وجل السياق العام للسورة بهذه الآية والآية السابقة لها ، فكانت كل آية منهما ختاماً فيه نظر إلى السياق من وجهة مخصوصة ، وقد بينت وجهة الآية السابقة ، أما هذه الآية فوجهتها هي النظر إلى السياق العام على أنه شاهد ودليل على أن الله أحكم

الحاكمين :

فالاستفهام في الآية استفهام تقريري ، بمعنى : الله أحكم الحاكمين . قال القرطبي : ألف الاستفهام إذا دخلت على النفي ، وفي الكلام معنى التوقيف ، كان إيجاباً ، أي تقريراً . **فما معنى أحكم الحاكمين ؟ وما وجه دلالته في السياق العام ؟**

أحكم : أفعل تفضيل من الفعل :" حَكُمَ " بضم الكاف أي صار ذا حكمة ، والحكمة هي معرفة أفضل النتائج بأفضل الوسائل . الحاكمين : جمع مفرده حاكم ، من الفعل : حَكَمَ . فالله عز وجل حكم " قضى " أن يكون خلق الإنسان على هذا النظام ، الذي بينه ابتداءً بقوله ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ وانتهاء بقوله ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وهذا الحكم حُكْم حكيم ، أي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .وما سوى ذلك من حاكمين لاترقى حكمتهم في أحكامهم حكمة رب العالمين في حكمه .

عن أبي هريرة ﷺ قال

من قرأ سورة ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فقرأ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . رواه الترمذي .

وكان علي وابن عباس رضي الله عنهما يقولان ذلك .